في إطار: الملتقى الوطني الأول
مظاهر الانفتاح الفكري والأدبي في إسهامات الأمير عبد القادر الجزائري
قسنطينة ـ 4 فيفري 2024
من إعداد: الأستاذ أحمد السعيد رحماوي

الرؤية الأمريكية المعاصرة للأمير:
عبر كتاب جون كايزر "أمير المؤمنين: الحياة والسياقات التاريخية للأمير عبد القادر"

تقدمة البحث: التأثير البالغ لجون كايزر على الوعي الأمريكي بالأمير لا ينكره أحد. لقد أسهم الكاتب الأمريكي في بعث روح الأمير في سماء مدينة "القادر" وجل أمريكا من جديد. سواءا من خلال كتابه الشهير "أمير المؤمنين: الحياة والسياقات التاريخية للأمير عبد القادر" أو عبر مشروعه الذي يسعى اليه حثيثا، ألا هو الفيلم الهوليودي حول حياة الأمير.

المنهجية المتبعة: إسهام جون كايزر يندرج تحت صنف "الاستشراق". ولقد اعتمد المنهج التاريخي في قراءة السياقات التاريخية وأردفه بالمنهج الوصفي في سبر أغوار حياة الأمير. وهي ذاتها الأدوات المنهجية المتبعة هنا، بيد أن هذا البحث يندرج تحت صنف "الاستغراب" حيث عرفه الأستاذ «حسن حنفي» بقوله عن مهمة علم الاستغراب:
"القضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس ... مهمة هذا العلم الجديد رد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية بعد أن انتشر خارج حدوده إبان عنفوانه الاستعماري من خلال سيطرته على أجهزة الإعلام وهيمنته على وكالات الأنباء، ودور النشر الكبرى، ومراكز الأبحاث العلمية، والاستخبارات العامة"

الإشكالية: تناول كتاب جون كايزر الأمير عبد القادر من جانبين: شق حول حياته وشق آخر حول السياقات التاريخية أي قبل، أثناء وبعد. نظرا لثقله في الوعي الأمريكي فإن صورة نمطية ما تشكلت لدى الوعي الجمعي

الأمريكي. ترى هل هاته الصورة النمطية نسبيا جامعة مانعة؟ هل فعلا استوفى جون كايزر حياة الأمير وسياقاتها؟ أين مسألة الإبادة الجماعية؟ أين مشروع وحدة القطر وبناء الدولة الوطنية الحديثة من شق حياة الأمير؟

الخطة المتبعة:

مقدمة

المبحث الأول: السياقات الأمريكية لرمزية الأمير

المطلب الأول: روح الثورة الأمريكية تستحضر رمزية الأمير

المطلب الثاني: مدينة "القادر" وشبح الإرهاب

المبحث الثاني: حياة الأمير تتجاوز أفق كايزر

المطلب الأول: صورة الشرق النمطية "المجاهد~الصوفي~المسالم "

المطلب الثاني: إغفال كايزر لبوصلة الأمير "الثائر~الموحد~المحدث"

الخاتمة

مقدمة: نتناول في المبحث الأول مختلف المحطات التي شهدتها صورة الأمير في العقل الجمعي الأمريكي، ثم نسبر في المبحث الثاني قصور النظرة الأمريكية عن الإلمام بحياة الأمير. سنقابل في كل محطة من محطات هذا البحث بين سردية جون كايزر وبين الشواهد التاريخية لحياة الأمير، اقتفاءا لمنهج ابن خلدون في إعمال العقل في النقل: "... لأن الأخبار إذا اعتد فيها مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغايب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق..."[1]

المبحث الأول: السياقات التاريخية لرمزية الأمير بين مد الفخر وجزر العار، هكذا ارتسمت صورة الأمير في حلقات الدولة الأمريكية الفتية. تارة يتوئمونه مع جورج واشنطن، وتارة يتوجسون منه خيفة، وأخرى يستلهمون فيها منه قدوة لأجيالهم الصاعدة.

[1] عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، مكتبة لبنان، بيروت 1992، ص 8، 9

المطلب الأول: روح الثورة الأمريكية تستحضر رمزية الأمير ألقت السماء محبة الأمير في قرية أمريكية اعتنقت اسمه وهو في أحلك أيام نضاله لتحرير بلده. رغم أن مراسلات الأمير لم تجد صداها الأمريكي، إلا أن القدر شاء أن يشهد له بالفضل أيقونة الإنسانية الأمريكية أبراهام لينكولن.

الفرع الأول: مدينة القادر على نهج جورج واشنطن تشهد مدينة "القادر" بأيوا الأمريكية في العقود الأخيرة احتفاءا غير معهود برمزها الأمير عبد القادر الجزائري الذي تحمل اسمه منذ قرون. تاريخ التسمية يعود إلى القرن التاسع عشر. تحديدا في عام 1846، عندما أقنع رجل القانون تيموثي ديفيز رفيقيه جون تومسون وسيج تشيستر بتسمية تجمع سكاني بمقاطعة أيوا بمدينة "القادر" نسبة إلى القائد الجزائري الأمير عبد القادر الذي كان يقود شعبه في مقاومة شرسة ضد الاستعمار الفرنسي الذي استولى على الجزائر. نقرأ في الموقع الرسمي لمدينة القادر الأمريكية، تحت بند التاريخ ما يلي:

"Elkader's first permanent residents arrived in 1836 when Elisha Boardman and Horace Bronson settled on the banks of the Turkey River in Pony Hollow. Boardman established the first farm and together with other early settlers built the first schoolhouse. Timothy Davis, John Thompson and Chester Sage laid out a plan for their community which was officially platted on June 22, 1846. Davis was challenged with the task of choosing a name for the new Iowa community. They named the new village "Elkader" after "Abd El-Kader", a young Algerian hero who led his people in a resistance to French colonialism between 1830 and 1847."[2]

الفرع الثاني: أحوال الأمير في عام 1846 كان الأمير قد تراجع الى أدنى تقهقره عسكريا، مع ذلك ظل نجم الأمير ساطعا في كبريات العواصم، وأهم الدوريات العلمية كانت تعنى بأحوال الأمير ومقاومته الشرسة. في نفس العام الذي اختار فيه رجل القانون الأمريكي دافيس تسمية مدينته على اسم الأمير، كان عام 1846 للأمير عام

[2] https://elkader-iowa.com/visitors/elkaders-history/

الحزن. قبلها بثلاث سنين، سنة 1843، سقطت عاصمته النوميدية[3] وبها صفوة المخلصين وأهل الحل والعقد من ربوع الوطن، في حين كان هو وأخلص فرسان الجيش المحمدي منبوذين في شعاب الجبال. جيش أسسه من خيرة الجزائريين عبر ربوع الوطن. فرض الزمان على الأمير وعصابته الحصار. غربا، غدر به أزلام المخزن المراكشي. شرقا، الجنرال بيجو يبيد كل قبيلة تفي ببيعتها وعهدها بالجهاد. لم يكن الأمير ممن يحمل قومه ما لا يطيقون. تشرذمت دولته. أينما ولى وجهه، شرقا، غربا، شمالا، جنوبا، أصبح عبئا ثقيلا وضاقت به الصدور. كان الأمير يقبل اعتذار القبائل. في ليلة ماطرة، أدرك أن الأمل كل الأمل في الجيش المحمدي. إن هلكت هاته العصابة فلن تذكر الجزائر أبدا.[4] في أروع موقف لصاحب المواقف، وبعد سبعة عشر عاما من الجهاد المضني، أحل الأمير فرسانه من بيعتهم[5] بعد أن أبلوا أحسن البلاء، فليعد كل فارس إلى قبيلته، وليضع الأمير، أب الليل والنهار، ذاته رهينة

---

[3] ليس الحديث هنا عن الدولة النوميدية القديمة، وإنما لفظة نوميدية بالاستعارة، حيث تحيل صفة النوماد إلى الترحال الذي اتصفت به عاصمة الأمير الدائرية المتنقلة. وكأنما يحتمي الأمير بإرث بربري قديم غير بائد، وهندسة دائرية تحاكي بغداد عاصمة العباسيين التي زارها أثناء رحلة حجه في صباه.

[4] حال الأمير مع القبائل التي اختار قادتها المغانم حال يوم أحد، يوم فر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي وكسرت رباعيته وهشمت خوذة الحديد على رأسه وسال الدم على وجهه. وحاله مع الجيش المحمدي حال يوم بدر، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره ثم قال "اللهم أين ما وعدتني؟ اللهم أنجز ما وعدتني. اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبدا." قال فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه. صحيح أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير.

[5] Alex. Bellemare: Abd-El-Kader - Sa vie politique et militaire, Librairie de L. Hachette et Cie, Paris 1863, page 312 et 313:

“Abd-el-Kader commence par rappeler aux siens le serment qu’ils lui ont prêté à Médéah, le 15 novembre 1839, à la veille de la déclaration d’hostilités,l’engagement qu’ils ont pris de ne jamais l’abandonner, quelles que fussent les pertes ou les souffrances qu’ils eussent à endurer, puis il continue:

— Ce serment que vous m’aviez prêté et que vous avez tenu vis-à-vis de moi, il était de mon devoir de le tenir vis-à-vis de vous. Telle est l’explication de ma résistance alors que tout espoir était déjà perdu ; j’ai voulu qu’aucun musulman, grand ou petit, ne pût

لمحتل قد نقض كل عهوده أيام ديميشيل والتافنة. الأمير نزل عن فرسه ووضع سيفه حقنا لدماء الجزائريين، لكنه سيستل ريشته حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. أبر الله جهاد الأمير والجزائر اليوم يحرسها الجيش الوطني الشعبي سليل جيش التحرير سليل الجيش المحمدي.

الفرع الثالث: أبراهام لينكولن يكرم الأمير يستهل كايزر، في سياق ذكره لسيل النياشين، التي تلقاها الأمير سنة 1860 إثر انقاذه لمسيحيي الشام من إبادة محققة، بالحكومة الفرنسية، البنت الكبرى للكاثوليكية. يذكر بعدها تباعا باقي دول العالم تاركا تكريم أبراهام لينكولن للذيل، بل إن كايزر يتهكم حتى على رئيس الولايات المتحدة بالغارق في مشاكل أمته. لينكولن كان الزعيم العالمي الوحيد الذي لم يرسل نياشينا، وإنما انفرد بإرسال صندوق به زوج مسدسين وقد حفر عليه عبارة أكثر ايحاءا: "من فخامة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى فخامة اللورد عبد القادر".[6] فما دلالة امتعاض جون كايزر من لينكولن؟ وما دلالة هدية لينكولن للأمير؟

---

m'accuser de vous avoir demandé un engagement que je n'aurais pas rempli moi-même vis-à-vis de vous, et dire que je n'ai point tout fait pour assurer le triomphe de la cause de Dieu. Si vous voyez quelque chose qu'il me reste à tenter, dites-le ; si vous ne voyez rien, je vous demande de me dégager du serment que je vous ai prêté mentalement le jour où j'ai réclamé solennellement le vôtre.

— Nous rendrons témoignage devant Dieu que tu as fait pour sa cause tout ce qu'il était possible de faire. Au jour du jugement, Dieu t'en tiendra compte."

[6] John Kiser, p. 306

عبر طيات كتابه يتجلى تعاطف جون كايزر مع الكاثوليك. أما أبراهام لينكولن فهو على المذهب البروتستانتي. وبين الطائفة البروتستانتية والكاثوليكية أحقاد لها أول وليس لها آخر.[7] سواء في أمريكا التي استولى فيها البروتستانت على الرئاسة ولم يظفر بها إلا كاثوليكيان اثنان: جون كينيدي المغتال وجون بايدن الخرف. أما بأوروبا، فمن أحقادها "مذبحة سان بارتيليمي" في باريس سنة 1572 التي راح ضحيتها الآلاف من البروتستانت في فرنسا على يد الكنيسة الكاثوليكية.[8] أما عن قرائن صليبية جون كايزر، فعنوان فصله ما قبل الأخير "الكل للواحد All for One" وتكملتها الكل للواحد والواحد للكل، وهي قاعدة التثليث الصليبية التي مجدها من قبل الروائي ألكسندر دوما، مروج استعمار الجزائر،[9] وأنكرها الفلاسفة عبر العصور. أما عن قرائن كاثوليكيته، فقد تجلت في انتقاد جون كايزر اللاذع لهرطقات مسيحيي الشام وخروجهم عن الحاكم، وأن مسيحيي الشام لو التزموا بالمذهب الكاثوليكي حول واجب الخضوع والاستسلام لظلم الحكام[10] لما احتاجوا للأمير عبد القادر، وأن الأمير عبد القادر لم تحركه دوافع الإنسانية بقدر ما فوت على فرنسا فرصة احتلال الشام تحت ذريعة الانتقام لمسيحيي الشام.[11] ربما دراية الأمير بمكر فرنسا في حادثة "المروحة" أكسبته بعد نظر.

جون كايزر انتقائي في سرديته التاريخية. لا يذكر أن بلده امتنعت، سنة 1860، عن تكريم الأمير. آنذاك كان جيمس بيوكانان الابن، وجه العجين كما يلقبه الأمريكان، يمثل آخر حلقة من رؤساء حكومات الأبرتايد. أمريكا لم تكرم الأمير إلا سنة 1861، بعد أن تولى أبراهام لينكولن الحكم، إذ سجل التاريخ إنسانيته لما قاد حربا ضروسا على تجار العبيد. لينكولن، بهدية المسدسين الرمزية، اعترف بمشروعية النضال العسكري للأمير. أما الحكومات الأمريكية السابقة له فقد امتنعت عن الدعم اللوجستيكي له، رغم توتر العلاقات الأمريكوفرنسية التي كان الأمير على دراية بها. لقد راسل الأمير، أوائل أيام كفاحه، جيمس ليب قنصل أمريكا في طنجة. بعده، شارل جارفيني

---

[7] لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (سورة الحشر 14)

[8] https://www.marefa.org/حروب-الدين-الفرنسية

[9] https://www.ancrage.org/alexandre-dumas-decrit-lalgerie-quand-la-litterature-se-fait-propagande/

[10] John Kiser, p.311

[11] John Kiser, p.307

قنصل أمريكا بالجزائر. بل إن الأمير بعد معاهدة التافنة، عرض على جارفيني منصب وكيل ممثل للأمير في مدينة الجزائر.[12]

تمكن جارفيني، بناءا على نصوص المعاهدة وكذا تعليمات الأمير، من تأمين أسلحة وذخيرة منها 10800 كلغ من البارود و200 قنطار من النحاس. بل إن الأمير سعى للاكتفاء الذاتي وباشر عملية التصنيع الحربي، حيث كلف جارفيني بمهمة البحث عن أخصائيين للقيام بعمليات التنقيب عن المعادن في مناطق سيادته، وفعلا تولى أحد البولنديين ذلك، مما اضطر الادارة الاستعمارية الى سحب اعترافها بجارفيني وهو أمر عارضه الأمير "...أما بعد فإن قنصلنا جارفيني، قد أخبرنا أنه لم يعد مسموحا له القيام بأعمالنا...وأنكم ترغبون في أن يحل محله ممثل عربي...".[13]

المطلب الثاني: مدينة "القادر" وشبح الإرهاب مع مرور الزمن على مدينة "القادر" الأمريكية الهادئة، أضحت دلالة الأمير مجرد بطل عربي قديم. بيد أن هذا الخمول انقشع لما أطلت فتنة الإرهاب بوجهها القبيح على أمريكا. فجأة أصبح الإسلام وكل ما يمت إليه بصلة محكوما عليه بتهمة الإرهاب بما فيهم شبح الأمير عبد القادر الذي صار عارا يصم مدينة "القادر" الأمريكية.

الفرع الأول: تداعيات هجمات الحادي عشر من سبتمبر تفاوتت تداعيات صدمة هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 على أمريكا. كل طيف من أطياف المجتمع الأمريكي، شديد التنوع، تلقاها حسب مشربه. بيد أن هؤلاء المتشاكسين عكفوا على دراسة الإسلام بشراهة ونهم. بعضهم استغلها سانحة لإذكاء نار الحرب الصليبية المقدسة على الإسلام. بعضهم تشكك في مؤامرة دبرتها المخابرات الأمريكية، بل وأقام الحجة على أن البرجين الشاهقين كانا ملغمين بالديناميت وإلا فقوانين الفيزياء تقضي بأن اصطدام طائرة ببرج قد يحطم جدارا، لكن يستحيل أن ينسف هيكلا ضخما من جذوره. بعض المهووسين بجلدتهم البيضاء اتخذوها ذريعة لممارسة ساديتهم المريضة على الجالية الأمريكية المسلمة. الأفروأمريكيون المسلمون امتعضوا من الاسلاموفوبيا واعتبروها وجها جديدا

[12] د. معمر العايب: علاقة الأمير عبد القادر بالأمريكان 1836 -1837 الأسباب والخلفيات، مجلة القرطاس جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان، العدد 4، جانفي 2017. ص 106

[13] د. معمر العايب: المرجع السابق، ص. 107

للعنصرية القديمة تجاه السود. بعض الأحرار، وقليل ما هم، استل قلمه ليبرئ الإسلام من تهمة الإرهاب. فأيهم جون كايزر؟

قتل الأبرياء العزل جريمة تستنكرها جميع الشرائع السماوية والدنيوية. الحق كل لا يتجزأ. من يستنكر مقتل العشرات أولى له أن ينتفض لمقتل الملايين. جون كايزر في مرية من جرائم الإبادة الجماعية للشعب الجزائري تحت أوامر أدعياء المهمة الحضارية الفرنسية. أن يعنون جون كايزر كتابه "أمير المؤمنين: الحياة والسياقات التاريخية للأمير عبد القادر" فهذا يستدعي منهجيا إحصاء السياقات التاريخية لما جرى ابان ثورة الأمير على الفرنسيس. وأي سياق تاريخي أسطع من إبادة قبائل عن بكرة أبيها رفضت الانصياع لهمجية الاحتلال؟ يصعب ادعاء الجهل بجرائم وثقتها حتى نيويورك تايمز الأمريكية:

"The French again resorted to razzias on the refractory tribes, frequently inflicting cruelties wholly unwarranted by the usage of civilized warfare, and which have left an indelible stain upon their arms. One of these razzias was signalized by smothering a large party of men, women, and children, by placing lighted fagots in the opening of one of the caves of Dahra, in which they had taken refuge."[14]

لقد سجل حمدان خوجه، ابن عائلة جزائرية عاصمية عريقة والأمين العام لإيالة الجزائر العثمانية، فضائع الفرنسيس التي سكت عنها جون كايزر:

" لقد تكلمت عن سكان إيالة الجزائر، وقلت بأن عددها يبلغ عشرة ملايين نسمة.. إن بعض الجنرالات المشهورين لم يترددوا في اقتراح إبادة أمة بأكملها مركزين اقتراحهم على قلة عدد السكان. ولو افترضنا أن هذا العدد القليل لا يتجاوز المليونين كما ذكر ذلك بعض الكتاب، ألا تكون إبادة مليونين من الناس جريمة في نظر الشعوب المتحضرة والإنسانية جمعاء؟"[15]

[14] The New York Times Archives: November 12, 1873, p. 5

[15] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، منشوراتANEP ، الجزائر 2005، ص. 270، 271

الفرع الثاني: سر تعلق جون كايزر بسيرة الأمير جون كايزر لا يصرح بانتماءاته الدينية، مثله مثل المستشرقين، يحبذون صفة المفكر الحر، الباحث عن الحقيقة. وهي حيلة تمنحهم قرينة الموضوعية، وتحميهم من تهمة الشخصانية، تخفي أجندتهم السرية، تحفهم بحصانة الحيادية وترفعهم إلى مصاف الحاكمية. لكن تعرفهم من لحن القول. يعترف جون كايزر بأن الحمية الكاثوليكية هي من جلبته لدراسة حياة الأمير عبد القادر الجزائري. في ظل عشرية الإرهاب السوداء التي عانت من ويلاتها الجزائر، وقعت حادثة اغتيال رهبان تيبحيرين بالمدية. يحكي جون كايزر عن سر اهتمامه بسيرة الأمير فيقول:

"I am often asked how I learned of the emir and why I became interested in him. Abd el-Kader's story is actually a sequel to The Monks of Tibhirine, a book I wrote about Trappist monks in Algeria whose kidnapping and gruesome death riveted France in 1996. Their monastery in the hamlet of Tibhirine lay on the slope of a mountain with a steep cliff face called Abd el-Kader Rock. Curious about the name, I was told Abd el-Kader was the Algerian George Washington, the father of modern Algeria, who had once directed a battle from the top of the mountain. Abd el-Kader was the first Arab to create a semblance of tribal unity in order to combat the French occupation. But in defeat, I noted a resemblance to Robert E. Lee. He was gracious, magnanimous, respected by his enemies and deeply religious. As I learned more about Abd el-Kader from admiring Catholics in Algeria, I realized that the monks and Abd el-Kader shared a similar view of God, followed similar communal rituals, even dressed alike, and that their faiths found both a real and symbolic fraternity in Tibhirine."[16]

[16] John W. Kiser: Commander of the faithful - The life and times of Emir Abd El-Kader, Monkfish Book Publishing, New York 2008, p. 7,8 of Introduction.

الفرع الثالث: تبني مؤسسة "Abd El-Kader Education Project" لكتاب كايزر في وقت تتعرض فيه أمريكا، بفسيفساء أعراقها المتنوعة، للتهديد بالتشرذم والانقسام، يسعى "مشروع عبد القادر التعليمي Abdelkader Education Project" إلى الارتقاء بالوعي المجتمعي نحو تقبل الآخر عبر عرض الأمير عبد القادر كنموذج إنساني:

"We advocate for cultural understanding and educate leaders through curriculum development, scholarship contests, and community engagements. Our curriculum, created by experienced educators, is designed to educate students of history and social studies from sixth grade to the university level about different cultures. The lessons can be downloaded free of charge on our website. We provide scholarships to students and educators through annual prize contests that require applicants to demonstrate an interest in cultural understanding. Finally, we engage the community by participating in various events that enable us to present our material to broad audiences. The Emir Abd El-Kader is a model of humanitarianism and civility. We promote his life as an example of unity in a world afflicted with division. The Emir is a central and consistent theme in our educational material, scholarship contests, presentations, and community engagements."[17]

هاته المهمة ليست بالهينة، بل هي بالغة التعقيد في مجتمع هزته أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001 بنيويورك بشدة. خفتت أصوات العقل والحكمة والتسامح وازدادت جماعات اليمين تطرفا ضد المسلمين بعد الهجمات الإرهابية على بوسطن في 2013. إن سلسلة من الأواصر كانت قد امتدت من قبل بين مدينة معسكر الجزائرية ومدينة "القادر" الأمريكية حتى توجت بالتوأمة سنة 1984 واستمرت أعواما إلى أن خفتت في التسعينيات بسبب عشرية الإرهاب الأعمى الذي عانت منه الجزائر التي ما كادت تنتصر على الظلاميين حتى روع ارهابهم الأعمى

[17] https://abdelkaderproject.org/what-we-do/

الأبرياء العزل في أمريكا، فانتهزها العنصريون فرصة لمضايقة الجالية المسلمة بأميركا. لكن سنة 2008 كانت فارقة، غمرت فيضانات بقسوة مدينة "القادر" الأمريكية. السيدة كاثي جرامز مسؤولة المتحف المحلي لمدينة "القادر" الأمريكية تحمل سماعة الهاتف لطلب مد يد العون من الجزائر، فتتفاجأ بالسرعة والسخاء في النجدة. هي نفس السنة التي ينشر فيها جون كايزر كتابه الشهير حول الأمير. وفي السنة الموالية يؤسسان منارة أمريكية لروح التسامح وتقبل الآخر سموها "مشروع عبد القادر التعليمي".[18]

المبحث الثاني: حياة الأمير تتجاوز أفق كايزر في شروط النهضة يقدم لنا مالك بن نبي مفتاحين لقراءة تاريخ الاستعمار والشعوب المستعمرة:

- المفتاح الأول: "**المعامل الاستعماري**" الذي يخدمنا في إدراك محدودية أفق المستشرقين، بمحسنيهم ومغرضيهم، إذ أنهم يجرون أمجاد روما الاستعمارية وعلى أعينهم غمامات كخيل العربات، فانحصرت رؤيتهم للأمير ضمن ثلاثية ترضي كبريائهم "المجاهد~الروحاني~المسالم".
- المفتاح الثاني: "**القابلية للاستعمار**" الذي يخدمنا في فهم الأمير كحدث لم يتفاعل مع الاحتلال فحسب، بل تولى بعث الأمة وتوحيدها من جديد سواء ضمن بيئته الجزائرية أو في منفاه الشامي، فكان "الثائر~الموحد~المحدث".

المطلب الأول: انحصار كايزر في صورة الشرق النمطية "المجاهد~الروحاني~المسالم" جون كايزر امتداد لوهم بيئته الاستعمارية. يقول مالك بن نبي: "الاستعمار يعتبر من الوجهة التاريخية نكسة في التاريخ الانساني؛ لأننا إذا بحثنا عنه فسنجد أصوله تعود إلى روما، حيث وضعت المدنية الرومانية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ."[19] النظرة الاستشراقية ممعنة في الاستعلاء. هي من شدة سطحيتها تتلاشى أمام أي فحص. المستشرقون يرون في الجزائر مقاطعة أفريقية رومانية، كان فوقها بربر همجيون، ثم ضمتها روما لإمبراطوريتها، ثم استحوذ عليها عرب بدو وما الأمير إلا آخر مورسكي مهزوم، تخلى عن هويته الدنيوية الزمنية "Temporal"، ولى مهزوما

[18] A version of this article appears in print on May 4, 2013, Section A, Page 18 of the New York Times edition with the headline: Iowa Town Named for Muslim Hero Extols Tolerance.

[19] مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق 1986، ص. 148

لقريته مكة، وارتقى في معراج الروحانية "Mysticism" فأصبح رهبانيا مسالما مذعنا لروما ظل الله في الأرض.[20]

الفرع الأول: المجاهد لأن كايزر جزء من الحضارة الغربية، مجبول على الزهو بها، معتقد أن قيمه الإغريقو . رومانية تعلو ولا يعلى عليها، وأن الغرب مركز الدنيا والدين، فهو يرى أو يلمح إلى أن مسيرة الأمير ابتدأت بكونه مجاهدا على نمطية العهد القديم، رجل دين يرفع راية الحرب المقدسة وحوله جمع من الشهداء على الطريقة المسيحية. كأنما كان هذا البطل غنمة شاردة عن الرب المسيح لم تجد بعد خلاصها، لكن المسيح يحفها بعنايته نحوه حتى تترفع عن انتمائها وتتماهى في وحدة الوجود.

عودنا الغرب على نسف التاريخ الإسلامي في الجزائر، وأن إحالتهم الأولى هي للاحتلال الروماني أيام كانت الجزائر تسمى "مقاطعة إفريقية" فأما ما قبلها فبربر. أما إحالتهم الثانية فهي إلى "حملة الملك شارل العاشر الحضارية" تجاه فسيفساء من البدو يسطو بعضهم على بعض. جون كايزر للأسف يحاول جاهدا زج الأمير في سياق تاريخي اخترع حبكته. فتراه يبرر فروسية جيش الأمير بالغزوات التي كانت تشنها القبائل على بعضها البعض. حيث اجتزأ في نظرة سطحية "Clichet" النسيج الاجتماعي إلى صنفين: أهل الجواد المتمرسين على القتال وأهل المرابطة المنغمسين في التعبد. ويضيف بأن كلا الطرفين منعزل مشاكس للآخر. أهل الجواد يتندرون على المرابطين الكسالى، والمرابطون يحتقرون رعونة أهل الجواد. وحتى تكتمل حبكته، يشير إلى أن الأمير وإن كان من فريق المرابطين إلا أن حبه للصيد هو ما أكسبه مهارات الفروسية إبان حربه على الاحتلال الفرنسي.

يبدو أن جون كايزر لم يسمع عن حرب الجزائريين مع اسبانيا ابنة روما الكاثوليكية. ثلاثمائة سنة من المعارك امتدت منذ 1492 إلى 1792. جاء في التقرير الرسمي العثماني حول الاستعداد الجزائري للفتح الثاني لوهران من قبضة الإسبان الصليبيين أن محمد بن عثمان الكبير باي الغرب قد جهز جيشه من قبائل معسكر: " أما خليفة الغرب، محمد عثمان، فقد جاء على رأس أربعة آلاف من فرسان العرب الدوايرا".[21] فرسان الأمير لم تلدهم الصدفة، وإنما كانوا جزءا من الجيش العثماني غير النظامي، وظم أهم قبائل الغرب: الدوايرا، الزمالة، الغرابة، البرجية

[20] John W. Kiser: Op Cit, p.190

[21] أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 . 1792، دار البعث، قسنطينة 1968، ص 490

والمكاحلية.[22] هي ذاتها القبائل التي ستعرض بيعتها لمحيي الدين بعد الفراغ الذي أحدثه انحصار الأسطول العثماني إثر موقعة نافارين سنة 1827، وانتهاز شارل العاشر الفرصة لإنزال سيدي فرج.

الفرع الثاني: الروحاني دائما مع استغراق كايزر في قيمه الغربية، تظهر لنا صورة نمطية أخرى يرسم كايزر خلفيتها بمهارة دون التصريح بدلالتها. الروحاني الذي شذ عن قومه وعشق الرهبانية والانعزال عن محيطه. الصوفي الذي تقوده عناية إلاهية نحو إعطاء خده الأيسر لصافعه و "ترك ما لله لله و ما لقيصر لقيصر".[23] أدعياء "المهمة الاستعمارية الحضارية" حرفوا رسالة عيسى عليه السلام لتصبح مطية لملوك روما، فقد ادعى "بولس" صحبة عيسى وأن رسائله جزء من الانجيل. أشهر رسائل بولس هي "رسالته إلى أهل رومية" يدعوهم فيها إلى الخضوع المطلق لملوكها ويحرم عليهم مقاومتهم: "فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ.. {رسالة 12} لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ الله.. {رسالة 13}"[24]

تشطح أفكار كايزر حين يحاول أن يجد له سلسلة تصل الأمير بيسوعهم المصلوب. يخلط الغث بالسمين. نعم كان محيي الدين من أتباع الطريقة القادرية نسبة إلى الإمام الصوفي والفقيه الحنبلي عبد القادر الجيلاني، لكن لم ترد المرويات قط بأن الجيلاني كان يخص "اليسوع المصلوب Jesus Christ" بالتبجيل والإكبار:

“Muhi al-Din educated his son in the tradition of their patron saint, Abd el-Kader al-Jilani. Their Kadiriyya brotherhood had been named to honor the teachings of this 11th-century holy man. During a pilgrimage to the Middle East, Muhi al-Din’s father, Mustafa, had adopted his doctrines. Al-Jilani preached a simple, universal message that attracted not only Muslims but also Jews and Christians: Muslims had a duty to pray for the well-being of all people, not simply for fellow Muslims. **He taught**

---

[22] د. حنيفي هلايلي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة 2007، ص. 89

[23] ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (سورة الحديد:27)

[24] الكتاب المقدس: العهد الجديد. رسالة بولس إلى أهل رومية 13:12

Muslims to hold a special place of respect for Jesus Christ. Jesus was the goodness of God and his power of love set him apart from all the other prophets."[25]

هل يدري جون كايزر أن عقيدة الجيلاني الحنبلي وأهل السنة والجماعة وصريح القرآن صارمة في أن السيد المسيح عيسى عليه السلام لم يصلب؟[26]

الفرع الثالث: المسالم من الملاحظات المنهجية على جون كايزر هو الضبابية في الاحالة، إذ يدرج نصوصا لشخصيات دون ذكر الإحالة المباشرة وانما يكتفي أحيانا بذكر مصدرها في قائمة المراجع. نظرا لأنه يستند إلى منظر الاحتلال الفرنسي ألكسيس دوتوكفيل للإيحاء بأن الجزائريين همج والأمير استثناء، وجبت العودة لصاحبه دوتوكفيل الذي يقول في تبريره لهمجية الاحتلال الفرنسي تجاه الشعب الجزائري الذي صمد أمامهم فبطشوا به:

"Si en Europe on ne brûle pas les moissons, c'est qu'en général on fait la guerre à des gouvernements et non à des peuples"[27]

في فصله الخامس، بعنوان "الابن المطيع"، يتخبط جون كايزر خبط عشواء كدجاجة فقدت رأسها. يحيل إلى منظر الثورة الفرنسية "ألكسيس دو توكفيل" ويدعي أن مقاومة الجزائريين لم تكن لأسباب دينية، وإنما فقط لأن الفرنسيس أجانب وغرباء.[28] ثم يعود ليقر بأهمية الدين في الجزائر، بل وأن مكانة "أرستقراطية المرابطين"[29] أمثال

---

[25] John W. Kiser: Op Cit, p. 11

[26] وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (سورة النساء:157)

[27] Alexis de Tocqueville (1841), Travail sur l'Algérie, version numérique par Jean-Marie Tremblay professeur de sociologie dans le cadre de la collection: "Les classiques des sciences sociales", Chicoutimi 2002, p. 15. http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html

[28] John W. Kiser: Op Cit, p. 44

[29] هنا خانه التعبير، عوض "الأرستقراطية Aristocratic" التي تحيل إلى حكم نبلاء الإقطاعيين، كان أصوب لحبكته استخدام عبارة "ثيوقراطية Theocracy" على أساس أن المستشرقين، ليوم الناس هذا، لا يميزون بين رجال الدين المسيحي وعلماء

محيي الدين، والد الأمير، كانت حسنة من حسنات الاحتلال الفرنسي الذي خلص الجزائريين من الأتراك.[30] ثم يصف تحالف قبائل الجزائريين بالعصبية الضعيفة، التي جعلت محيي الدين ينصح الأمير الشاب في تعامله مع القبائل بكفتي ميزان المكافآت والخوف من العقاب، حتى يفرض على الجزائريين طاعته.[31] العجيب أن جون كايزر يقر أن قبائل سهل غريس السبعة هي التي سعت إلى مبايعة محيي الدين لقيادتهم، فيجيبهم بأنه يتنازل عن البيعة لصالح ابنه، وأنه، أي محيي الدين، من بين أسباب إعراضه، أنه لا يريد اراقة الدماء فهو رجل السلم.[32] الأعجب، أنه ينقلب على عقبيه مرة أخرى، في معرض الحديث عن إعدام قائد قبيلة الزمالة، لما انتهك الحظر الذي فرضه الأمير على التجارة مع الغزاة الفرنسيس. جون كايزر يقول إن محيي الدين ومجلس العلماء الذين قضوا بالإعدام يتماهون مع الغزاة في وحشيتهم، بل يجعلون من الأمير وحشا:

"The savage killing of Abd el-Kader's former schoolteacher made good copy for the French propaganda machine, one that was transforming the emir into a monster."[33]

يصيب جون كايزر في أن لقب الأمير، الذي اختير ابان بيعة نوفمبر 1832، لا يمت بصلة للمعنى الأرستقراطي للقب "Prince" وإنما هو أمير للمجاهدين "Commander of the faithful". فالأمير لم يسع للسلطان والملك الوراثي. وجون كايزر في هذا لم يحد عن جادة الصواب. لكن مرة أخرى، شطحاته تحمله على افتراء غير معهود، مفاده أن محيي الدين وقبائل الغرب دانت لسلطان مراكش بالولاء قبل وبعد الغزو، ولهذا السبب لم يقبل الأمير لقب السلطان، الذي عرضه عليه أبوه محيي الدين، خضوعا منه لسلطانه المراكشي تحت واجب الطاعة:

"Abd el-Kader refused the title of sultan, the tribes had offered his father. Adab had schooled him in the right order of things and to submission before higher authority. He needed whatever support he could get from

---

الإسلام، لأنهم لا يستوعبون أن أصول الفقه مهيمنة على الفقيه، وألا ولاية للفقيه في الإسلام السني. أو ربما لم يخنه التعبير وله في ذلك مآرب أخرى.

[30] John W. Kiser: Ibid, p. 45

[31] John W. Kiser: Ibid, p. 51

[32] John W. Kiser: Ibid, p. 46

[33] John W. Kiser: Ibid, p. 52

the neighboring Moroccans. Abd el-Kader insisted that if his name were mentioned in the mosques, it always follow that of Sultan Abderrahman. He wanted at first to be called simply, emir, or commander. Later, he became Emir al-Muminin, Commander of the Faithful."[34]

المطلب الثاني: إغفال كايزر لبوصلة الأمير "الثائر~الموحد~المحدث" يعود مالك بن نبي إلى أوائل أيام الاستعمار لينبهنا إلى أن "المعامل الاستعماري" السابق ذكره، يبقى معاملا خارجيا، لا يتمكن من التغلغل في حياة الفرد ضد ضميره وضد مصيره إلا إذا ترادف مع معامل باطني أخطر هو "القابلية للاستعمار"، يقول رحمه الله: " ... كان القائد الفرنسي بوجو، وهو في عهد الاحتلال، الصورة المقابلة للأمير عبد القادر، أول فرنسي أدرك حقيقة الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من عبقرية فذة إدراكا وضع بمقتضاه الطريقة المناسبة لاستقرار الاستعمار..."[35]

الفرع الأول: الثائر بسط السيادة الجزائرية من جديد هو لب المشروع الثوري للأمير. اختلفت رؤية الأمير عن أبيه محيي الدين. كلاهما يرى الارتباط الوثيق بين كفاح المحتل الفرنسي ووحدة القبائل، بيد أن الأمير تخلى منذ البدء عن الاكتفاء بحملات الجهاد التقليدي على فيالق المحتل. بادئ الأمر كانت بيعة الأمير منحصرة في قبائل الغرب. رؤية الأمير كانت ثورية في إيلاء الأولوية لبسط السيادة على كامل التراب الجزائري.[36] توازن القوى يقضي انشاء دولة جزائرية موحدة تواجه دولة فرنسا المركزية. قد يختلف البرلمان الفرنسي مع الملك، أو حتى الحاكم العام في الجزائر مع جنرالاته، لكن في نهاية الأمر، الاحتلال مشروع فرنسي ملزم لجميع مؤسساته. فرنسا ألقت بثقلها كله في حملتها على الجزائر، لقد أرسلت فرنسا خيرة جنرالات امبراطورهم البائد، نابليون الأول، الذين زعزعوا

---

[34] John W. Kiser: Ibid, p. 49

[35] مالك بن نبي: المرجع السابق، ص. 146

[36] Faruqi, Daanish, "The Spiritual Reformist Thought of the Amīr ʿAbd al-Qādir al-Jazā'irī in the Eyes of his
Western Interpreters: A Critical Historiographical Review" (2012). All Theses and Dissertations (E TDs).
1030. Page 14.
https://openscholarship.wustl.edu/etd/1030

عروش أوروبا. جنرالات فرنسا يستلهمون عنفوانهم من امبراطورهم نابليون الأول الذي كان قد مات في منفاه قبل أن يرى حلمه في احتلال الجزائر. لذا، كان للأمير جبهتان متوازيان: جهاد المحتل، وبسط السيادة الجزائرية الواحدة الموحدة من جديد.

جون كايزر يسير مسار الأقدام السوداء، فهو ينفي عن الأمير كونه امتدادا للأمة الجزائرية ومؤسسا لدولتها الحديثة. لا يرى في الأمير إلا مجاهدا تقليديا غزى أجداده شمال أفريقيا وعاشوا فيها قبائل متناحرة. أنى لإمبريالي أن يرقى وعيه لوعي الثوار. أما ثوار الجزائر فكانوا يستحضرون الأمير لبث الروح الوطنية واستكمال نضاله نحو الاستقلال. بعد مجازر 8 ماي 1945، ألقى كاتب ياسين مقاله المدوي من قلب باريس "الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر" فند فيها مزاعم الأقدام السوداء والإدارة الاستعمارية الدموية:

“On prétendait que l’Algérie n’avait en fait jamais existé, ou mieux, qu’elle avait peut-être existé, mais en tant que peuple mineur, et qui serait passé indiscontinûment au cours des siècles de tutelle en tutelle. Il n’est pas difficile de réfuter de telles arguties … D’abord, si l’on doit juger d’un pays au nombre d’invasions qu’il eut à repousser, la France elle-même qui en a connu quelques dizaines ne résisterait pas à l’examen. Ensuite, il est un fait flagrant, plein de bon sens qu’aucune personne sincère et avertie ne peut songer à mettre en doute: c’est que l’Algérie, après avoir triomphé de toutes les formes de colonisation depuis la phénicienne en passant par la romaine, s’est intégrée d’elle même à la communauté arabe et musulmane. Et elle tient tellement à cette communauté que malgré la chute de l’Empire et du prestige musulman, cent dix-huit ans de militarisme français ne l’ont pas écarté de l’Islam. Voilà la plus belle victoire spirituelle d’une civilisation qui n’est ni prête, ni résolue à périr!”[37]

[37] Kateb Yacine: Abdelkader et l'indépendance algérienne, Les Éd. algériennes En-Nahdha, Alger, [1948] p. 41 et 42.

الفرع الثاني: الموحد اختار الأمير لمشروعه الوحدوي مدينة "تقدمت" بتيارت العاصمة القديمة للرستميين الإباضيين. رغم التناوش القديم بين دولة الرستميين وبين دولة الفاطميين، ورغم أن نسب الأمير الشريف يجعله للفاطميين أميل، بيد أن الأمير يضرب المثل في ترفعه عن الانتماءات العشائرية والمذهبية الضيقة. لقد شملت دولته الوطنية ربوع الجزائر وفق ثمان مقاطعات:

- مقاطعة تلمسان
- مقاطعة معسكر
- مقاطعة مليانة
- مقاطعة جبال زواوة البويرة
- مقاطعة تيطري المدية
- مقاطعة مجانة سطيف
- مقاطعة الزيبان والصحراء الشرقية بسكرة
- مقاطعة الصحراء الغربية بشار[38]

مشروع الأمير الوحدوي كانت تنازعه عقبة الطائفية الرجعية. الطائفية، طمعا في مكاسب العروش، وجه من أوجه القابلية للاستعمار. يقول مالك بن نبي:

" ... لنتأمل... ما الذي بعث العالم الإسلامي من نومه قرنا؟ ... إنه الاستعمار. نعم إنه خلع علينا بابنا، وزعزع دارنا، وسلب منا أشياء ثمينة. لقد أخذ منا حريتنا وسيادتنا وكرامتنا، وكتبنا المنسية، وجواهر عروشنا، وأرائكها الناعمة، التي كنا نود لو بقينا عليها نائمين ..."[39]

منظر الاحتلال أليكسيس دوتوكفيل أدرك أن مشروع الوحدة الوطنية التي يؤازرها الجيش المحمدي الموحد عقبة كؤود أمام الحملة الفرنسية:

[38] الدكتور يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 85، 86

[39] مالك بن نبي: المرجع السابق، ص. 149

“Aujourd'hui qu'Abd-el-Kader est à la tête d'une armée toujours réunie et qui peut, à chaque instant et au moindre soupçon, tomber sur ceux qui voudraient le trahir.”[40]

وأن الوقت يعمل لصالح الأمير الذي يبسط السيادة الجزائرية بسرعة متزايدة. هذا التخوف أعلنه دوتوكفيل صراحة سنة 1841:

“Il est au contraire fort à craindre qu'Abd-el-Kader ne soit en train de fonder chez les Arabes qui nous entourent un pouvoir plus centralisé, plus agile, plus fort, plus expérimenté et plus régulier que tous ceux qui se sont succédé depuis des siècles dans cette partie du monde. Il faut donc s'efforcer de ne pas lui laisser achever ce redoutable travail.”[41]

جون كايزر يلغي الرستميين وباقي دول الإسلام من تاريخ الجزائر. كأن الجزائريين على هامش التاريخ مذ دك عقبة بن نافع حصون الرومان. بل تجده يحاول ذم الشعب الجزائري في التخاذل عن الجهاد عبر المبالغة في إطراء الأمير، وهو محض افتراء. الشعب الجزائري بكل أطيافه قاوم الاحتلال ولفظه. إنما تسلل الخور من السم الذي بثته الادارة الاستعمارية في قلوب بعض رؤوس الطوائف الطامعين الذين انفصلوا بأتباعهم عن مشروع الوحدة الوطنية وهذا مربط الفرس. بعضهم اختار التماطل والتربص، بل منهم من سول لأتباعه الخيانة تحت توجيهات ألكسيس دوتوكفيل:

“Il y a deux moyens d'amener chez les Arabes le schisme dont nous devons profiter :

- On peut gagner quelques-uns des principaux par des promesses ou des largesses.
- On peut dégoûter et lasser les tribus par la guerre.”[42]

[40] Alexis de Tocqueville (1841): Op Cit, p. 14

[41] Alexis de Tocqueville (1841): Ibid, p. 12

[42] Alexis de Tocqueville (1841): Ibid, p. 13

قد يعزى تأخر بعض القبائل في الانضمام لمشروع الوحدة الوطنية إلى ضعف الوعي بالخطر الصليبي، إذ كانت أغلبها تحت دار السلم العثمانية، أما الاعتداءات الاسبانية الصليبية فتركزت على دار الحرب شمال غرب الجزائر. للأسف ابتلع بعض أمراء الطوائف في الجزائر طعم الطائفية تحت الترغيب والترهيب:

- الطائفة المخزنية: بقايا المخزن العثماني في غرب الجزائر وعلى رأسهم مصطفى بن إسماعيل لم يروا ضيرا في قبول الاستعمار فقد كانت لهم تجارتهم أولوية. أما المخزن المراكشي، فإن الأمير ألزمهم بفتاوى التسولي إمام مدينة فاس،[43] لكنهم اختاروا التربص بالأمير حتى تذهب ريحه.
- طائفة الزوايا: لم يكن العلامة عبد الحميد بن باديس متجنيا على الزوايا. الأمير عبد القادر الصوفي كان أول من انتفض على رجعية بعض القبوريين من شيوخ الزوايا. من ذلك حصاره لشيخ الزاوية التيجانية الذي أراد عزل الصحراء عن مشروع الوحدة الوطنية.
- الطائفة العثمانية: لو كان داي وبايات الجزائر من نفس طراز أحمد باي لربما ما نخر الفساد جسد الرجل المريض في الجزائر. لكن أحمد باي بالنسبة للجزائريين آنذاك امتداد لباقي بايات الفساد، لذا لم يحظ بترشيح القبائل، فاختار الانفصال بمقاومته داخل أسوار آخر بايليك للعثمانيين.
- الطائفة القبلية: بعض السادة حملوا السلاح ضد الأمير بسبب مرض الزعامة المقيت. من ذلك أن المقرانيين وقفوا مع الأمير عبد القادر واختاروا محمد عبد السلام المقراني خليفة الأمير في الولاية الخامسة "مجانة". انشق أحمد المقراني عن المقرانيين وانضم إلى فرنسا،[44] فلما قضت منه فرنسا وطرا قزمته، ولما تمرد قمعته في بضعة أيام. وفاءا من الأمير للمقرانيين، طلب لهم الحماية والرعاية إثر لجوئهم إلى تونس: "...فان ولدنا الشريف الأثيل السيد الحاج محمد بن بوزيد المقراني ورد علينا بالديار الدمشقية..."[45]

الفرع الثالث: المحدث امتد التاريخ الدبلوماسي للأمير لثلاثة عقود من مراسلات الملوك وقادة الرأي في العالم، تكللت بفتح قناة السويس المصرية وإعادة صياغة القانون الدولي الإنساني بجنيف. كل هذا و أكثر اختزله جون كايزر في ردود الأمير على أسئلة منظمة ماسونية كاثوليكية مغمورة كانت تسعى للشهرة عبر مغازلة مشاهير العالم.

---

[43] عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح: أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، دار الغرب الإسلامي 1996

[44] الدكتور يحيى بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، تونس 1983، ص 282.

[45] الدكتور يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 287، 288

جون كايزر لم يختلف عن غيره من المستشرقين. فكأنما يريد أن يقزم ماردا كالأمير في فانوس إنقاذ مسيحيي الشام من إبادة الدروز المسلمين لهم. القارئ يخلص إلى وهم أنكره الأمير في حياته. الإيهام بأنه نادرة قومه "Dissident" وأن روحانيته وقراءاته للإغريق هو ما أهله لإكرام الأسرى ونجدة أهل الكتاب فاستحق تكريم امبراطوريات الغرب له وارتقى حتى نال شرف الانضمام إلى "الماسونيين الأحرار".

الواقع غير ذلك تماما يا سيد كايزر. فرنسا الكاثولائيكية السكيزوفرينية، بوجهيها الكنسي الملكي ثم الجمهوري الإمبراطوري، إنما ذاقت الويلات من الأمير: أكثر من 15 سنة من الجهاد العسكري، وثلاثون سنة من النضال الدبلوماسي، أفل بريق ماديتهم وسطع نجم إنسانية الأمير. أباطرة الغرب صارت تحمل نياشينها وتتهافت على سنتمترات من برنوس الثائر النبيل الأبيض النقي.

دائما كغيره من المستشرقين، جون كايزر في سعيه لاحتواء الأمير عبد القادر في القالب الكنسي يستعمل مغالطة منطقية تدعى التحريف بالتجزيء: "قد تتناول جزءا صغيرا من موقف الخصم، فتأخذه بأكثر من حجمه، وتفرط في تعميمه فتعامله كما لو كان ممثلا لموقفه الكلي، بينما هو لا يمثل شيئا ذا قيمة".[46] لقد خصص للماسونية فصله ما قبل الأخير، وجعل من جزئية ردوده على الماسونية درة تاج انقاذ الأمير للمسيحيين وفناءا له في كل الكنسية "All for one".[47] بينما محافل الماسونية تقاطعت طريقها مع انسانية الأمير ولم تكن منتهاها.

دائما مع قاعدة مالك بن نبي في إرجاع الحدث لسياقه التاريخي، في عام 1860، كان الأمير نارا على علم وكانت الماسونية مجرد جمعية مغمورة ناشئة من المتعاطفين تابعة لكنيسة منهارة متهالكة تجاهر الثورة الفرنسية بسعيها لإبعادها عن الحكم. مدحت هاته المنظمة الأمير، كغيرها من المادحين، نظير إنقاذه مسيحيي الشام. لم ينسب أيامها الأمير لذاته فضلا بل كان رده الدائم لكل مادحيه: "لم أقم إلا بما تمليه علينا الشريعة الإسلامية وواجباتنا الإنسانية".[48] عام 1864، منحته الماسونية شرفيا وسام الأستاذ الأكبر في دمشق. لو كان الأمير متملقا للكنيسة لفعل ذلك أيام محنته في معتقل أمبواز حين راوده الأساقفة على التنصر فأبى وأفحمهم بكتابه "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد"، الذي غض عنه جون كايزر النظر.

---

[46] عادل مصطفى: المغالطات المنطقية ـ فصول في المنطق غير الصوري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2007، ص. 165

[47] John W. Kiser: Op Cit, p. 297-316

[48] John W. Kiser: Op Cit, p. 306

الخاتمة: لم تكن مقاربة جون كايزر مرآة للسياقات التاريخية للأمير، بل اعادة قولبة لحياة الأمير بما يخدم سياقات أمريكا لما بعد الحادي عشر سبتمبر 2001.

للأسف جون كايزر سجين خرافة علمية نظر لها مالك بن نبي:
"إن جميع الوسائل اتخذت لمحو الحضارة الإسلامية من سجل التاريخ... حتى ظهر في عيون من أخذ عنهم أن التاريخ البشري ليس تلك السلسلة التي تتصل فيها جهود الأجيال... ولو أنهم دققوا النظر، لوجدوا هوة كبيرة تفصل حضارة أرسطو وحضارة ديكارت، وأن تلك الهوة من القرون هي الحضارة الإسلامية... التي كانت همزة الوصل في التاريخ الإنساني بين حضارة باريس واثينا. غير أن المدنية الحاضرة تخطت الحضارة الإسلامية التي تحمل رسالة الإنسانية لتأخذ من الحضارة الرومانية روحها الاستعمارية..."[49]

خير ما قل ودل في توصيف حالة جون كايزر المضطربة ما جادت به قريحة كاتب ياسين:
"Abdelkader, a commencé à défendre l'indépendance algérienne contre les turcs avant de la défendre contre les Français. Ceci confond aisément **ceux qui veulent voir une guerre sainte dans tous nos combats**, ces visionnaires en chemises de soie qu'une mosquée effraie autant qu'une forteresse."[50]

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بِلَيْلَى...وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا[51]: أما الأمير عبد القادر الجزائري فهو في غنى عن جون كايزر وقوالبه الكنسية. تكفي الأمير شهادة أعداءه فيه بأنه كان من عظماء القرن التاسع عشر:
"One of the ablest rulers and most brilliant captains of the century"[52]

---

[49] مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق 1986، ص. 148، 149

[50] Kateb Yacine: Abdelkader et l'indépendance algérienne, Les Éd. algériennes En-Nahdha, Alger, [1948] p. 41 et 42.

[51] بيت رفعه ابن تيمية لقيس ليلى

[52] The New York Times Archives: February 25th, 1873, p. 4.

قائمة المراجع:

- القرآن الكريم
- الحديث الشريف
- الكتاب المقدس: العهد الجديد
- عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون المجلد الأول، مكتبة لبنان، بيروت 1992.
- حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر 2005.
- عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح: أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، دار الغرب الإسلامي 1996
- الدكتور حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة 1991.
- الدكتور يحيى بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، تونس 1983.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق 1986.
- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 ـ 1792، دار البعث، قسنطينة 1968.
- د. حنيفي هلايلي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة 2007.
- عادل مصطفى: المغالطات المنطقية ـ فصول في المنطق غير الصوري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007
- د. معمر العايب: علاقة الأمير عبد القادر بالأمريكان 1836 -1837 الأسباب والخلفيات، مجلة القرطاس جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان، العدد 4، جانفي 2017.
- Alex. Bellemare: Abd-El-Kader - Sa vie politique et militaire, Librairie de L. Hachette et Cie, Paris 1863.
- Alexis de Tocqueville (1841), Travail sur l'Algérie, version numérique par Jean-Marie Tremblay professeur de sociologie dans le cadre de la collection: "Les classiques des sciences sociales", Chicoutimi 2002.

http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html

- John W. Kiser: Commander of the faithful - The life and times of Emir Abd el-Kader, Monkfish Book Publishing, New York 2008.
- The New York Times:
  - February 25th, 1873
  - November 12th, 1873
  - May 4th, 2013
- Kateb Yacine: Abdelkader et l'indépendance algérienne, Les Éd. algériennes En-Nahdha, Alger, [1948]
- Faruqi, Daanish, "The Spiritual Reformist Thought of the Amīr ʿAbd al-Qādir al-Jazāʾirī in the Eyes of his Western Interpreters: A Critical Historiographical Review" (2012). All Theses and Dissertations (E TDs) 1030 https://openscholarship.wustl.edu/etd/1030
- https://www.marefa.org/حروب-الدين-الفرنسية
- https://www.ancrage.org